دور مصر...

حديث هادئ مع التاريخ

الحركة البطيئة فوق جسر المتاعب

"أعرف شيئا واحدا.. هو أننى لا أعرف شيئا"

سقراط

obeikan.com

obeikan.com

إذا كانت الأمة العربية تكتشف قدرها فى مصر.. فإن دور مصر ـ أيضا ـ يستمد أبعاد تأثيره وحركته مما حوله، بالانتماء إلى ما هو أكبر من حدوده..

وفى حقيقة الأمر فإن الأزمة العربية الشاملة التى استحوذت على عمر السنوات فيما بعد حقبة السبعينيات وكانت القضايا معلقة والمشاكل تزداد تعقيدا ـ خلقت عوامل سالبة لحركة الدور المصرى وتأثيره فى منطقة تهب عليها رياح عاصفة من النزاعات والمشاحنات وتصادم المواقف!!

....

وأزمة الواقع العربى ـ مع بداية الثمانينات ـ كشفت عن أزمة غياب دور مصر (عربيا) نتيجة رد فعل عربى (عصبى) بمقاطعة أو عزل مصر بتجميد العلاقات الدبلوماسية معها، وحين فرضت سياسة "مفترق الطرق" أحكامها على الواقع العربى بعد أن تعددت وتنوعت وتقاطعت خطوط الإشارات التى تنظم مسار الأحداث العربية والتى كانت حركتها تدور فوق ساحة ممتدة من النزاعات والصراعات، والتشتت فى الرؤية، ومما جرف الأحداث إلى تجاوزات وتحالفات طحنت الواقع العربى داخل حرب الكلمات!! وكانت أحداث تلك المشاهد الساخنة قد شهدت انفجار المواجهات والتهديدات بين ليبيا والسودان، وإعلان الرئيس الأمريكى وقتئذ "ريغان" بأن الولايات المتحدة سوف تسرع بإرسال معدات عسكرية إلى السودان ومصر للرد على مغامرات التوسع الليبى.. وأعلنت الخارجية الأمريكية على لسان المتحدث باسمها " دين فيشر " بأن الولايات المتحدة ستوفد قريبا فريقا من المستشارين العسكريين الأمريكيين إلى السودان لتدريب الجيش السودانى على استخدام الأسلحة الأمريكية،

وأن الحكومة الأمريكية ستسارع بتقديم مساعدات عسكرية واقتصادية للسودان قيمتها ٢٠٠ مليون دولار لمواجهة التهديدات الليبية!!

وفى القاهرة أعلن جعفر النميرى ـ الرئيس السودانى فى ذلك الوقت ـ وأثناء تواجده بعد المشاركة فى تشييع جنازة الرئيس السادات: بأنه يتوقع أن تهاجم القوات الليبية بلاده فى أى لحظة وأن تحاول غزوها بمساندة من موسكو والدول الشيوعية.. وأن الليبيين يقصفون قرى سودانية قرب الحدود مع تشاد بمعدل ٣ أو ٤ مرات يوميا خلال الشهرين الماضيين.. وأن القذافى يقود حملة اقتصادية ضد السودان ويرسل عملاء لشراء كميات هائلة من السلع الاستهلاكية وإغراقها فى النيل لخلق أزمة فى المواد الغذائية.. وأضاف فى حديث لوكالة "أسوشيتدبرس" أن أمريكا ستقف بكل حزم مع السودان!!

وبعد شهور معدودة من تصريح النميرى بدأت رائحة صفقة "الفلاشا" تنتشر وتثير الاشمئزاز لدى المواطن العربى وتصيب المجتمع العربى بصدمات التساؤلات التى تحمل مئات الاستفهامات وأيضا كان الدور الأمريكى فى إتمام وتنفيذ بنود المقايضة واضحا جليا لا تستره حتى التصريحات.. وحين كانت السفارة الأمريكية فى الخرطوم هى مقر غرفة العمليات والتنسيق لنقل يهود الحبشة إلى إسرائيل!!

والواقعة، أو المشهد الساخن كان كافيا لرسم صورة كاشفة للواقع العربى، والعلاقات العربية ، والتدخلات الأمريكية، والتحركات الإسرائيلية!! وكان تداعى المشاهد مثيرا للدهشة والسخرية معا حين تبدلت العلاقات بين الأقطار العربية من صورة إلى أخرى مشحونة بالتوتر العسكرى.. وحدث هذا بين مصر والسودان.. ليبيا ـ مصر.. الأردن ـ

سوريا . . العراق ـ الأردن . . المغرب ـ الجزائر ! !

. . . .

. . . .

ورغم "تراجيديا" الخلافات العربية التى شهدتها المنطقة، فقد كان الوعى الجماعى حاضرا بضرورة تصحيح الخلل . . وحين عادت العقول لتقرأ مجموعة الحقائق التالية :

* أولا : أنه لا يمكن عزل (مصر) حين تصبح القضية التى تهدد الوجود العربى ومصير حاضره ومستقبله هى قضية "الأمن القومى العربى" . . ولا يمكن أيضا تجميد أو تحييد دور مصر فى مواجهة المتغيرات التى فرضت نفسها على الخريطة السياسية والاقتصادية والعسكرية العربية . . ولا يمكن ثالثا أن تستمر موجة "المجاملات الدبلوماسية" بين مصر وبقية الدول العربية نوعا من الاعتراف بحقيقة دور مصر وثقلها العربى والعالمى ودورها فى تشكيل تاريخ أمتها . . ونوعا من الرغبة "المتوجسة" والحذرة فى إعادة الدماء داخل عروق الجسد العربى بعد المقاطعة الدبلوماسية . . وضرورة إعادة صياغة القرارات التى تخلق البدايات الصحيحة للحركة العربية المؤثرة بعد سنوات من عدم وضوح الرؤية العربية فى التعامل مع معطيات النتائج المتراكمة نتيجة الحركة العربية المفقودة . .

* ثانيا : أن دور مصر القيادى ليس حقا أعطى بالتراضى والتوافق العربى فقط . . ولكنه من ثوابت حقائق التاريخ العربى عبر قرون كانت فيها الجغرافية المصرية نقطة التقاء آمال وأحلام وتطلعات أمتها، وكان

محيطها البرى ووجودها السياسى والعسكرى درعا لوطنها العربى، وأن الواقع والمنطق والواجب يفرض تصويب الميزان الاستراتيجى العربى بعودة مصر التى تشكل ركنا أساسيا فيه..

* ثالثا: أن غياب دور مصر يرتبط أيضا وربما كان السبب الرئيسى فى سيطرة سنوات اللامبالاة والتشتت وانحسار مظاهر التضامن العربى.. وبعد أن خيمت على الإقليم العربى حقبة الشلل الإرادى التى اهتزت معها وسقطت معايير ومبادئ..

....

وكان ما يحدث فى بر مصر ـ بعد تولى الرئيس محمد حسنى مبارك مسئولية القيادة ـ يصدر إشارات واضحة لتمهيد الطرق لعودة ما انقطع ورأب الصدع.. كما كانت الأمة العربية ـ وكان ذلك واضحا على مستوى الشارع العربى ـ تتابع باهتمام بالغ خطوات الرئيس مبارك وبمشاعر تنسجها الآمال الطموحة حول قيادة دور مصر..

كان الحديث عاما ومتواصلا عن الدور المصرى..

ولكن..

ومع عودة العلاقات العربية مع مصر.. وعودة جامعة الدول العربية إلى مقرها الدائم فى القاهرة.. لم يكن المناخ مهيأ لحركة الدور المصرى، فقد كانت الساحة العربية ـ لا تزال ـ موصومة ومدانة ومجرحة، وبسبب تعدد الآراء والمواقف، وتداخل الأهواء، وتعارض المصالح.. ومن المفارقات المؤسفة ـ تطبيقا لما تقدم جميعه ـ أن الرؤية العربية للعلاقات الدولية كانت تستمد المرجع الذى تستند إليه من منهج فكرى سياسى

"خارجى" لذلك اختلطت الأمور، وتداخلت الانقسامات العربية مع تعقيدات صراعات مذهبية وفكرية.. وأصبحت التفسيرات المتعددة للمواقف تتأرجح بين الظن واليقين!!

....

وكان الوعى المفقود فوق جسر المتاعب قد صادر كل المحاولات التى يمكن أن تبحث عن (المجهول) وراء انفجارات الأحداث التى تتابعت بصورة تثير التساؤلات بعد أن توزعت الاتهامات بين الأسباب والدوافع.. وبقيت الدائرة تدور وتلف بمن داخلها، وتروسها تتآكل وهى تطحن مشاعر الرغبة فى استكشاف حقيقة ما يجرى ويحدث!! ورغم كل ذلك لا نعتقد أن الوعى كان عاجزا عن إدراك الحقائق خاصة أن تلك الحقائق لم تكن بحاجة إلى كشف المستور أو ترجمة مؤشراتها فقد كانت أمامنا أبجديات مقروءة ومسموعة!!

كانت الساحة العربية فى بداية حقبة الثمانينات تستقبل مقدمات الغزو الفكرى الثقافى، واستباحة العقل العربى.. وخطورة الغزو الثقافى أو الهيمنة الثقافية يمكن الإشارة إلى بعض جزئياتها من خلال رؤية خبير فى شئون العالم الثالث هو "سيرج لاتوش" والتى تضمنها كتابه (تغريب العالم).. يقول "لاتوش": إن تغريب العالم الثالث (ونحن فى القلب منه) هو أولا عملية محو للثقافة وتدمير بدون استثناء للبنيات الاقتصادية والاجتماعية والعقلية التقليدية.. إن هذا الذى يعرض على سكان العالم الثالث لكى يحل محل هويتهم الثقافية الضائعة إنما يتضمن صنع شخصية وطنية عابثة ذات انتماء خداع إلى مجتمع عالمى (هو الغرب) أى أن هذا الفيض المتدفق لا يمكنه إلا أن يشكل رغبات المستقبلين، وأنماط سلوكهم

وعقلياتهم، وأساليب حياتهم، وبالتالى فإن ضياع الهوية الثقافية يساهم بدوره فى عدم استقرار الشخصية الوطنية سياسيا واقتصاديا . . "

ويتصل بذلك أيضا ـ ونقصد اختراق الشارع العربى ـ البحوث المشتركة والممولة من جهات أجنبية دون دراسة واعية تحيط بمضمون وأهداف تلك البحوث وخاصة بعد تعدد المؤسسات الأجنبية الغربية التى تقدم المنح والتمويل لإجراء البحوث الاقتصادية والسياسية والاجتماعية تحت دعوى البحث العلمى والاحتكاك الثقافى مع الآخر، والاستفادة من الخبرات . . وهى فى حقيقة الأمر محاولات جادة لاكتشاف مناطق الاختراق وتمرير الأفكار . . وتتبع مواقع التشققات داخل الساحة العربية، ليس على أساس عرض الخبرة والحلول الأكاديمية، ولكن على أساس متطلبات التقارير التى تخدم أهدافها المشبوهة!!

واتسعت مساحة الاختراق ـ والحديث لا يزال متصلا بالاختراق الأجنبى ـ وكما يقول المفكر الإسلامى الأستاذ فهمى هويدى "الاختراق الذى لا يعد التجنيد هو صيغته الوحيدة وإنما قد يتم أيضا من خلال "الانحياز التطوعى" الذى يلقى ترحيبا ودعما معنويا من القوى الخارجية، ونحن نعرف ـ والكلمات للأستاذ فهمى هويدى ـ نماذج من البشر تتعبد بالغرب ـ مثلا ـ دون أن تكون مجندة أو مأجورة، ولدينا قرائن عدة على دور الأصابع الأجنبية فى الحملة على الإسلام بوجه أخص، لكن القرائن ترتفع إلى مستوى الأدلة فى صدد التدخل الأجنبى لإذكاء العصبيات الدينية والعرقية عن طريق اختراق الأقليات وغوايتها، والأمر شديد الوضوح فى المساندة الفرنسية للبربر فى الجزائر أو التأييد الغربى للمتمردين فى جنوب السودان والدور الأوروبى ـ الفرنسى خاصة

ـ الداعم للموازنة فى لبنان. . "

. . . .

. . . .

وكانت التطلعات التى تحيط بحركة الدور المصرى المرتقب فى هذه المرحلة، ومع بداية ولاية القيادة المصرية الجديدة (بداية عهد الرئيس السابق محمد حسنى مبارك. . وفى الحقيقة كانت بداية تحمل قدرا كبيرا من مشاعر التفاؤل) تتجاوز كثيرا حدود التعقيدات التى فرضت نفسها داخل دوامة الأحوال العربية وبصفة الجمع. . كانت الأمة منهكة أو مترهلة، وخطواتها متعثرة حينا أو مقيدة أحيانا على جسر المتاعب. . وكانت الشواهد ترسم صورة "الشلل الإرادى" للقدرات والإمكانيات. . والظنون والشكوك تطيح بكل شىء!!

. . . .

* مثلا. . كانت مأساة الحرب اللبنانية ـ والتى استمرت أكثر من خمسة عشر عاما بآثارها وجروحها ـ لا تزال تقذف بألسنة اللهب فى كل اتجاه. . ثم بدأ الاجتياح الإسرائيلى الشامل لدولة عربية (لبنان) ١٩٨٢ ومع عجز الرؤية العربية عن تتبع جولات المبعوث الأمريكى للشرق الأوسط "فيليب حبيب" ـ وقتئذ ـ والرفض العربى لأية مؤشرات سوء الظن قد تحيط بالتنسيق الأمريكى ـ الإسرائيلى. . ثم كانت مفاجأة العلم بالضوء الأخضر لقرار إسرائيل باجتياح الأراضى العربية اللبنانية. . وبعد الهجوم الإسرائيلى بثلاث سنوات كشف "بريان أوركهارت" السكرتير العام المساعد للأمم المتحدة بأن الحكومة الإسرائيلية رفضت اقتراحا دوليا قبل اجتياح لبنان بعدة أشهر يتم التوصل من خلاله إلى اتفاق حول

الترتيبات الأمـنية بين كل من لبنان وإسرائيل.. وأنه اجـتمع مع كل من "مناحـيم بيجـن" رئيس وزراء إسرائـيل، وأريل شارون وزير الـدفاع ـ وقتئذ ـ فى شهر فبراير ١٩٨٢ أى قبـل أربعة أشهر من الغزو فى محاولة منه لإقناع الحكومة الإسرائيلية بالموافقة على الترتيبات الأمنية على الحدود المشتركـة بشكل تكفله قـوات الطوارئ الدولية الموجودة فـى لبنان ولكن الحكومة الإسـرائيلية رفـضت هذا الاقتراح رفـضا قاطعا.. وأن مـنظمة التحرير الفلسطينية لم تكن مسئولة عن أى حادث أو عملية ضد إسرائيل طوال الفترة الممتدة من يوليه ١٩٨١ وحتى الاجتياح الإسرائيلى للأراضى اللبنانيـة فى يونيه ١٩٨٢!!" أى أن خطة الغزو كـانت فى طور الإعداد والتنسيـق.. ولكن الفكر العربى كـان قائما على أن الظـنون من أبغض الحلال، وإثما يتنافى مع حسن النوايا!!

. . . .

* ومثلا.. كانت الحرب الإيرانية ـ العـراقية فى بداياتها.. وبالطبع لم تكن قـضية الحدود هى كـلمة السر "الضـائعة" داخل ذلك اللـهيب المستـعر الذى امتد من حـدود البلدين إلى قلب الـعاصمتيـن، واستنزف الطاقات البـشرية والمادية.. ولم تكن "استـراتيجية العبـور" إلى الإقليم العربى بعيدة عـن المواجهات الدموية.. العبور إلى جغرافـية ممتدة كانت أحلام "شاه إيران" قد رسمت بالإشـارة بعض حدودها حين أجاب عن تساؤل يتعرض لمستقبل إيران بعد عشرين عاما هى العمر الافتراضى لآبار النفط. وقتـها كانت الأطماع تنتـصب فوق اتجاه إشارته التى عـبرت مياه الخليج بالقول: "بالعكس هناك مخـزون لمدة تزيد عن ثمانين عاما..؟" وبعد الانـتقال الدرامى لـلسلطة من "الـشاه" إلى "الإمام" فـإن ملامح

التغير أصابت "مضمون" الهدف أى الانتقال من مرحلة الأطماع الجغرافية والثروات الطبيعية إلى مرحلة تصدير أفكار الثورة الإيرانية وفرض "نمط" سياسى على الساحة العربية!!

ورغم أن القضية تتصل بمصير الأمن القومى العربى، فإن حقبة الانسحاب إلى داخل الذات القطرية العربية جعلت الحديث عن دور الجامعة العربية والتضامن العربى مجرد كلمات فقدت ظلها، واختلطت كل الحسابات داخل المعادلة العربية رغم وضوح الرؤية فوق الحدود الشرقية العربية!!.. وحين وقف المجتمع الدولى عاجزا أو راغبا عن وضع حد لتلك المأساة، فقد كانت هناك أولا مسئولية عربية قد اختبأت خلف مصالح خاصة!!

وأمام "الفرجة" العربية لمشاهد الحرب ـ المأساة.. وغياب التحرك العربى، فإن تطورات الحرب ارتبطت ببدايات التدخل السريع من القوى الخارجية فى مياه الخليج، ومظاهر الاستقطاب لقدرات وإمكانيات الدول العربية التى تطل على شواطئه!!ودعوة الحلفاء لتأييد التحرك الأمريكى بالمزيد من القطع البحرية العسكرية، وكل ذلك كان يتعدى حجم برنامج رفع العلم الأمريكى على السفن الكويتية أو مراقبة صواريخ " شط ـ بحر " الصينية (السيلكوورم) أو مجابهة التهديدات الإيرانية ـ قبل التعرض لقصف سفن النفط ـ على المدخل المؤدى للخليج بعرض (٥٠ ميلا).. ولكن الأساس أن تبدأ تجربة إحدى مراحل الصيغة الجديدة (وهى ترسم الخطوط العامة للاستراتيجية العسكرية) ونعنى بها فرض سياسة الهيمنة الأمريكية على منطقة الخليج العربى، وهى تتصل باستراتيجية الإعداد للقوة التى تسمى (السنتكوم) CenTcom أو القيادة الأمريكية الموحدة و

ترددت الأخبار حول إعداد الولايات المتحدة لتجنيد قوة قوامها (٦٠٠ ألف) جندى أمريكى للدفاع عن منطقة الخليج وجنوب شرق آسيا، ورصدت المبالغ، ووضعت الخرائط والمخططات التى تضمن الدفاع عن منطقة النفوذ، وأن تكون قوات السنتكوم الوريث الشرعى لقوات التحرك السريع التى أنشئت عام ١٩٨٠ فى أعقاب سقوط الشاه، وقد أنفقت الولايات المتحدة ١٤ مليار دولار حتى عام ١٩٨٨ لتكون السنتاكوم جاهزة للتحرك، وباعتباره أكبر مشروع عسكرى تقوم به أمريكا منذ خروجها من حرب فيتنام، وكان من الضرورى الحصول على قواعد لقوات السنتكوم فى عدد من المطارات والموانى وأن تكون تلك القوات الرديف الآخر لحلف الناتو، وهدفها إحكام الطوق حول الاتحاد السوفييتى من الجهة الجنوبية (والتحرك كان قبل الزمن الخاص بانهيار الاتحاد السوفييتى وانتهاء الحرب الباردة) وحددت المؤسسة العسكرية الأمريكية قوس اهتماماتها بتلك المنطقة التى تشهد أحداثا عميقة الأثر (من الصراعات العربية ـ الإسرائيلية، أزمات النفط، التيارات الإسلامية، الحرب العراقية ـ الإيرانية) وعوامل الانفجار كلها ـ كما هو واضح ـ ترتبط بقلب وأطراف الساحة العربية..

. . .

* ومثلا.. ومع اشتعال نيران الحرب العراقية الإيرانية.. وانهيار لبنان تحت القصف العشوائى للحرب الأهلية.. كانت الولايات المتحدة فى عهد الرئيس الأمريكى الأسبق ريغان ـ تحشد الأسطول السادس لمهاجمة الأراضى الليبية بدعوى دعمها للمنظمات الإرهابية ضد أهداف ومصالح أمريكية فى أوروبا.. وأجرت الإدارة الأمريكية مشاورات مكثفة

مع حلفائها فى أوروبا الغربية للحصول على تأييدهم لعمل عسكرى ضد ليبيا حدث بالفعل فى شهر أبريل ١٩٨٦. وشعرت الدول العربية بالقلق (فقط) بسبب الاشتباكات العسكرية وبدأت الدعوات تحث الجانبين على ممارسة ضبط النفس!!!

والغريب أن حجم الهجوم ونتائجه لم يكن على المستوى الذى ينال "الرضا" الإسرائيلى حيث جاءت التعقيبات على لسان الجنرال "عاموس ليفادون" ـ قائد سلاح الجو الإسرائيلى ـ فى ذلك الوقت.. بقوله: "إن الغارات الأمريكية ضد ليبيا لم تكن ناجحة تماما حيث ارتكب الطيارون الأمريكيون أخطاء متعددة وخطيرة بخصوص تحديد أهدافهم، ومن وجهة نظرنا فهى عملية جيدة".. واعترف بأن خمسة من الطيارين المشاركين فى العملية هم من الإسرائيليين!!

. . . .

* ومثلا.. فى بداية الثمانينيات كانت الحركة الأمريكية متسارعة لعملية تخليق للحقبة الإسرائيلية بالاستعانة بحالة الغيبوبة العربية.. حقبة "تخمة التفوق" الإسرائيلية التى واكبت حقبة الانكماش العربى.. وكان التوجه للخروج باقتصاد الكيان الصهيونى من الدائرة الشبه مغلقة وإنقاذه من الانهيار باعتباره دعامة أساسية للكيان السياسى والمؤسسة العسكرية.. فقد تم توقيع اتفاقية منطقة التجارة الحرة بين الولايات المتحدة وإسرائيل فى عام ١٩٨٥ والتى تعتبر الأولى من نوعها بين أمريكا وطرف (تعاقدى) ثان.. واستراتيجية التعاون التجارى عبر عنها الرئيس الأمريكى الأسبق ريغان ـ فى الاحتفال الذى أقيم بمناسبة التوقيع ـ بأنها تاريخية.. وتكفل بعدا جديدا للعلاقات الخاصة بين بلاده وإسرائيل..

وتدل على مدى التزام الولايات المتحدة بأمن إسرائيل ورخائها . . "

وفى نفس العام تقريبا تم تشكيل (اللجنة الدولية لتنسيق حرية التجارة مع إسرائيل) فى العاصمة البريطانية وهى تمثل جهازا دوليا يضم مجموعة رجال أعمال مؤيدين لإسرائيل من سبع عشرة دولة بهدف إجبار الشركات غير العربية على انتهاك التزامها بالمقاطعة التجارية لإسرائيل!!! وحقائق التكامل الاستراتيجى بين الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل لا يمكن حصرها داخل بعض النقاط ولكن بإيجاز غير مخل يمكن الالتفات إلى بعض مؤشراتها . . وهى: زيادة قوة التحالف الاستراتيجى ـ مجال حركة الدعم اللامحدود ـ وهو تحالف ورد فى وثيقتين موقعتين فى عام ١٩٨١ من كل من وزير الدفاع الإسرائيلى وقتئذ (شارون) ووزير الدفاع الذى جاء بعده (موشى أرنيز) والاتفاق الثانى فى عام ١٩٨٣ يحدد شروط تنظيم المناورات المشتركة وتخزين المعدات الأمريكية فى إسرائيل، ثم تأتى المشاركة فى مبادرة "الدفاع الأمريكية" دعما لذلك التحالف . . والاستثمار الأمريكى (المرحلة الأولى مليار دولار) فى مشروع الطائرة الإسرائيلية "لا فى" ـ الأسد المجنح ـ . . والتمويل الأمريكى (لعملية بناء غواصات وسفن حربية لصالح سلاح البحرية الإسرائيلية) وصرف مخصصات تمويل هذه النشاطات بشكل تدريجى . . وشهدت سنوات تخليق الحقبة الإسرائيلية منحها حق الدخول فى مناقصات وزارة الدفاع الأمريكية وهو امتياز خاص لإسرائيل وحدها علاوة على إعفائها من سداد ديونها العسكرية القديمة!!

وشهدت الحقبة الإسرائيلية علاقات أخرى تعتمد على الحركة العسكرية الممتدة عبر خطوط اتصال جديدة من المحاولات المشتركة

لصناعة "القنبلة النيوترونية" والاتفاقيات السرية لإجراء التجارب النووية مع حكومة بريتوريا ـ جنوب إفريقيا ـ وتصدير ضباط وجنود إسرائيليين سبق لهم الخدمة فى القوات الخاصة لحماية رجال الأعمال والسياسيين فى كل من السلفادور وفنزويلا والمكسيك. . وتدريب فرق الأمن الفلبينية المكلفة بحراسة ديكتاتور الفلبين السابق "فرديناند ماركوس" وإعادة تشكيل فرقة "كاما نيولا" الزائيرية وهى الكتيبة الأمنية الخاصة بحماية وحراسة نظام "موبوتو سيسكو". . وهى ممارسة لتصدير الإمكانيات والقدرات العسكرية، والشعور بالتفوق وبسط النفوذ داخل مواقع جديدة أصبحت ترى مع العالم انفراد إسرائيل داخل منطقة الشرق الأوسط بديناميكية الحركة السياسية والعسكرية.

. . . .

وفى ظل هذا المناخ من حقبة (الإنزواء للفعل العربى والانطلاق للحركة الإسرائيلية) كان من الطبيعى أن تنطلق أيضا المساومات الإسرائيلية التى تعترض انعقاد مؤتمر "الصيغة" الدولية لاحلال السلام العادل، وأصبح الإقليم العربى وعلى امتداد حقبة الثمانينيات منطقة استقصاء وجولات متكررة لمبعوثى الرئاسة الأمريكية وقد نوى "ريتشارد ميرفى" النصيب الأوفر من تلك الجولات ليجدد اهتمامات أمريكا بإحلال السلام فيها، ولم تسفر تلك الجولات عن نتيجة واحدة محددة أى بدون جدوى لاسيما وأن الإدارة الأمريكية تعلم كل شىء عن الموقفين العربى والإسرائيلى، ورغم ذلك كانت لغة الجولات تحذر من إضاعة الفرصة المتاحة لانعقاد المؤتمر الدولى وترك الباب مفتوحا أمام ما يسمى (مبادرات جديدة). . وتشجيع المباحثات (ذات الطبيعة الاستطلاعية) مثل

مباحـثات شمعون بريـز رئيس وزراء إسرائيل فى "إيفـران" بالمغرب مع الملك الحسـن الثانى، ومع كل مـبادرة نجد تلمـيحات أمريكـية لمنح دول المنطقة مـعونات اقتصادية كـبيرة!! دون وعى لأهمية عنـصر الزمن الذى كان بطبيعة الحال فى صالح الحركة الإسـرائيلية لبسط إجراءات تغيير وجه الجغرافية الفلسطينية المحتلة!!

. . . .

. . . .

وجسر المتاعب العربـية والحركة البطيئة المتثاقلة من فـوقه كان متصلا حتى العمق الإفريقى حيث شهد التـعاون العربى ـ الإفريقى فتورا مقطوع الصلة بأية تنظيمـات تعمل على استمرارية التنسيق وتـدفع حركة التعاون إلى مجالات أوثق خصوصا فى ظل الظـروف التى خلقتها تلك السنوات من تاريخ الأمة العربـية، ومن المؤكد كان لتراجع مصـر (أو تجميد دورها كما تردد من تعبيرات وقتئذ) تـأثيرا كبيرا على تراجع الحماس الذى رافق عقد القمة العربية الإفريقيـة الأولى والوحيدة فى القاهرة فى شهر مارس ١٩٧٧ ومن بين قـرارات هذه القمة إقـامة عدة أجهزة تـعقد اجتـماعات دورية منـتظمة، وهى مـؤتمر القمـة كل ثلاث سنوات، والمـؤتمر الوزارى الإفريقى العـربى كل ثمانية عشر شـهرا، واللجنة الدائمة تنعـقد مرة كل ستة شهور بالإضافة إلى لجنة التنسـيق المكونة من رئيس المجموعتين ومن الأميـنين العـامين، ومـجمـوعات العـمل المتخـصصـة ولجنة الوسـاطة والتحكيم. . ثم غابت القمة العربيـة الإفريقية أكثر من ٣٢ عاما، وضاع التنسيق، وتصدعت أو ترهلت العلاقات العـربية الإفريقية، وكان الغياب المصرى عن دائـرته الاستراتيـجية "إفريقـيا" مثيرا لـعلامات الاستـفهام

والتعجب معا، وفى مقابل الاختراق الإسرائيلى لإفريقيا!!

. . . .

. . . .

وفى نفس الوقت.. ورغم حالة التراجع والانكماش عربيا على مستوى القضية العربية الأولى (فلسطين) أو على مستوى العمق الاستراتيجى الإفريقى.. أو حتى على مستوى "الغفلة" التى أصابت الأمة تجاه أزمات وقضايا وأحداث ساخنة تناثرت على الساحة العربية.. كانت تلك "المفارقة" حين شغلت مشكلة أفغانستان منذ التدخل السوفييتى عام ١٩٧٩ ـ حيزا هاما من الاهتمامات العربية وارتفعت صيحات الحماس للدفاع عن المجاهدين الأفغان (بعض الأقطار العربية وبموجب اتجاه موقفها كانت تطلق عليهم المعارضة الأفغانية) وتم تجنيد مساحة عريضة من الإعلام العربى لتوجيه الدعوات للتبرعات المادية والانخراط فى صفوف المقاتلين للجهاد والتطوع بالقتال، وحازت قضية أفغانستان على قدر هائل من حركة الفعل العربى وانزوت بجانبها القضية العربية الفلسطينية والمقدسات الإسلامية المحتلة.. والواضح أن الانحياز وتبنى المشكلة الأفغانية كان بدافع التجاوب مع الموقف الأمريكى فلم يكن الصراع حول "كابول" سوى مواجهة عقائدية بين الوجود الشيوعى والرفض الأمريكى لتوسع السوفييت لنفوذهم داخل مواقع جديدة، فمنذ انقلاب الدولة الذى قاده الجنرال محمد داود ابن عم الملك محمد ظاهر شاه بمساعدة الشيوعيين تم تثبيت نفوذهم مع بداية حكم الرئيس "كارمال" وتولى حزب الشعب الشيوعى السلطة الحاكمة وانفراد "نجيب الله" بالقيادة ثم التزام الاتحاد السوفيتى بالدعم العسكرى للحكومة

الأفغانية ودعم الولايات المتحدة الأمريكية للمعارضة الأفغانية "الإسلامية" والقضية تندرج تحت أسس صراع الحرب الباردة بين موسكو وواشنطن ومواجهة كل منهم لتمدد نفوذ الآخر!!

وبالضرورة فإن الواقع العربى وفى تلك السنوات قد انتقلت آثاره الجانبية إلى داخل هيكل جامعة الدول العربية وقيدت حتى الرغبة الصادقة فى عقد مؤتمرات القمة فى كثير من الأحيان، وبالاعتماد على مبررات تقول "الوقت غير مناسب" وفى زمن كانت أيامه وشهوره وسنواته شاهد إثبات على مآسى التنافر لعدم وضوح الرؤية للتوازن بين الأهداف القومية العليا، والأهداف الوطنية ـ القطرية ـ ورغم ذلك فإن الرغبة فى إنهاء حالة الركود السياسى ورسم استراتيجية عربية محددة الأهداف ـ كانت تصطدم باصطلاح "الوقت غير مناسب" لعقد قمة عربية تبحث فى مشكلة فتح الجسور لتنقية المناخ العربى وتحقيق قدرا من التفاهم حول مجمل القضايا.. وارتفع شعار "غريب" يقول بتطبيع العلاقات العربية أى تطبيع الوفاق والإخاء العربى، وحين تخثرت رواسب أحقاد وتجذرت تفرعات المشاكل.. ومع (تجليد) دور جامعة الدول العربية، وتفشى ظاهرة (الوقت غير مناسب) إنقسم الموقف العربى العام وانشطر إلى شظايا تتصادم مع بعضها البعض!!

. . . .

ومع حالة التنافر والتشتت العربى كانت هناك حالة غريبة من الحرص على تتبع خطوات خارجية تتولى بالوكالة البحث عن حل لمشاكلنا وقضايانا.. وكان الالتزام صريحا بمبدأ (واجب اللياقة) وبمعنى المحافظة على واجب اللياقة مع القوى التى تدير أوراق اللعبة كلها ـ تأسيسا على

مبدأ يقول أن ٩٩٪ من أوراق حل قضيتنا المحورية فى يد الولايات المتحدة الأمريكية وحيث أن ٩٩٪ من مشاكلنا وقضايانا الفرعية تتصل بالقضية الفلسطينية قضية الشرق الأوسط أو المشكلة الشرق أوسطية كما يطلق عليها ـ فإن هذا يعنى أن همومنا (كلها) رهن حركة الآخرين(!) وهناك من يرى أن جانبا من واجب اللياقة يفرض تقدير المصداقية فى سياسات ومواقف وحتى توجهات الولايات المتحدة (ولا أساس بالطبع لهذه المصداقية)، فإن الجانب الآخر يتضمن تفسيرا أخلاقيا للتبعية المطلقة!!

المهم.. أن مبدأ واجب اللياقة ـ المشار إليه ـ لا يختلف كثيرا عن مفهوم واجب اللياقة من خلال قصة الرئيس الأمريكى "كالفن كوليدج" الذى رأس أمريكا بين عامى ١٩٢٣ ـ ١٩٢٩ ومجموعة أصدقائه حين فكر فى توجيه الدعوة إليهم لتناول الطعام معه فى البيت الأبيض، ونظرا لازدحام جدول مواعيده فقد تقرر أن يأتى الأصدقاء القدامى لتناول طعام الإفطار.. وقرر الأصدقاء أن من واجب اللياقة أن يتبعوا الرئيس فيما يفعل.. وهكذا عندما تناول الرئيس قطعة من "التوست" مغطاة بالزبده والمربى فعلوا مثل ما فعل وجرى كل شىء على ما يرام حتى جاء موعد القهوة فقام المشرف على الإفطار بصب القهوة فى كل فنجان، ومد الرئيس يده وأخذ الفنجان والطبق، وفعل الضيوف مثل ما فعل، ثم صب القهوة فى الطبق وتناول قطعة من السكر ووضعها فى الطبق وصب عليه اللبن، وفعل الأصدقاء مثل ما فعل، ثم قام وهو يحمل الطبق وهم كذلك، ثم انحنى الرئيس على الأرض فانحنوا أيضا، ووضع الرئيس الطبق أمام قطته المدللة، فأسقط فى يدهم، ولاذوا بالصمت وحمرة

الإحراج تكسو وجوههم!!

. . . .

. . . .

وكل ما سبق ليس تحديدا (شامل ومتكامل) للمتاعب العربية ومشاكلها وقضاياها، ولا ندعى القدرة على رسم الصورة واضحة المعالم والقسمات فليس الهدف من وراء ذلك إعادة سرد من ذاكرة الأجندة العربية وإنما القصد من وراء المحاولة المتواضعة كان بهدف البحث عن مسببات تلك الحركة البطيئة العاجزة عن العمل والمتابعة وتصحيح المسار. . وقد تكون الصورة "متموجة" الخطوط أو تكون المحاولة ـ جهد فاشل فى تتبع الأحداث فوق جسر المتاعب. . ولكنها أولا وأخيرا محاولة للاقتراب من ملامح الصورة خلال عقد كامل ـ أو يزيد قليلا ـ مثل تلك المحاولة التى فعلها "جرهام سوتر لاند" حين رسم لوحة لتشرشل بالقلم الرصاص ومغطاة بطبقة رقيقة من الطلاء الأبيض فلم تعجب الكثيرين، وعندما أرسل "سوتر لاند" صورة فوتوغرافية من اللوحة إلى "تشرشل" رد عليه برسالة قال فيها "إنها قد تكون جيدة كدراسة للشخصية فقط" أى أن الملامح غير متطابقة وأن ريشة الفنان قد جانبها التوفيق.

والشاهد. . أن التحدى الأكبر أمام الدور المصرى. . أن العبء جسيم، والقضايا متشعبة، ومعقدة، ومتداخلة، وأن المناخ المصاحب لها فرض أجواء من الشكوك والظنون وسوء النوايا. . وأصبح وضوح الرؤية أمرا شاقا، وأن الجهد الضائع فى هذه الحالة يستهلك فى تفكيك "عقد" الخطوط المتقاطعة وحل ألغازها. . وهذه العقد لا تحل ولا تنفرج!!

وكانت الرؤية المصرية تدفع أمامها بمحاولات تنقية الأجواء العربية أولا، ودون ذلك فإن أى جهد للتحرك الجاد، الفاعل والمؤثر، سوف ينتهى بالفشل قبل أن يبدأ، ويصبح رقما جديدا فى دوامة تشتت العلاقات العربية ـ العربية، وتناقض وأحيانا تصادم مواقفها. . وهى مواقف تحكمها ـ غالبا ـ مؤثرات تهب عليها من خارج الحدود!!

obeikan.com